



الدميم (٥) ... الأستاذ حبيب الزحلاوي

- ١ -

ما كدت أبتد بضعة أمتار عن المقهى حيث كنت جالسا مع طائفة من أصدقائي حتى شعرت بقبضة يد رقيقة تستمهلني . التفت فرأيت واحداً من أولئك الأصدقاء الجلاس ، فلهجت في نظراته شبه استعطاف ، فقال لي بلهجة لا تخلو نبراتها من قوة : أريد أن أسألك بشرط أن تجيبني بصراحة ، ما هي عقدة القصة ؟ وما هي الحكمة ؟ ما هو العرض والفكرة والوحدة التي تكلمت عنها فقلت إنها عناصر حيوية للقصة ؟ أنا يا صديقي أحسن كتابة القصة ، أو بمباراة أخرى أحسن خلقها فوراً ، وأبتدع وقائعها وأشخاضها ابتداءً ، وأجذب السمع إلى الانتباه إلى ، ولا أتركه إلا بعد أن أشبعه وأنتعه بلبات من الخيال المذوق ، والتلفيق الموشى بألوان من حسن الكلام . أليس هذا هو الفن ؟ ! واستطرد قائلاً : مادام الأمر كما ذكرت لك ، وأزعجني أني ذكرت الحقيقة الواضحة عن البناء الفني ، فما هي إذن المقدمة ، والحكمة ، والعرض والفكرة والوحدة التي تكلمت عنها ، وأحسب أني فهمت من مجمل كلامك أن لا قيمة للقصة الخالية من هذه الخصائص ؟ فهل هذا صحيح ؟

أعجبتني رؤية مسحة الطفولة تسكو وجه هذا الشاب ورفقت به وبأشاله ممن يتغالبون في الآداب والفنون ويستهنون بها كأنها سهلة التناول فقلت :

تعال معي إلى النادي فهناك أستمع إليك بانتباه وأجيبك إلى طلبك عن رضى .

قال : في الجلوس في المقهى متعة للنظر لوجود لها في الأندية .

قلت : ليس بي ميل إلى إشغال الذهن بمراقبة المارة ، وليس

(٥) من مجموعة قلب مبثر (تحت الطبع)

في ذلك الطمأ إلى المرأة الذي يتناكبكم أتم يا جلاس المقاهي قال : نحن على غير مذهبك الفردى يا صاحبي ، نحن جلاس الأفاريز ، رواد المقاهي ، نشور جوعاً ، نتلهف على لفتة من فتاة ، أو نظرة من امرأة ، ألا نحس مثلاً بالجماعة الجنسية وقد طمئت واستعصى أمرها على وزارة الشؤون الاجتماعية ؟

ابتسمت الكلام هذا الشاب التحمس ، فأخذته من يده فشئى معي ، فلما دخلنا الصعد الذي سيرتفع بنا إلى الدور العاشر من البناء قال : انت مضر على الجلوس في النادي وكثر الكهول والشيوخ من أرباب المال ؟ حسن ، سأجلس معك في هذا النادي المرتفع المترفع عن الناس ، وأقص عليك قصة من صميم الواقع ، وأنا قين بأنك ستشهد لي ببراعة الارتجال ، وبأن القصة هي القصة ، أعني أن المقدمة والحكمة ، والفكرة والوحدة ، إن هي إلا افتعالات ، أما إذا كانت شيئاً غير ذلك فستدلى عليه .

ابتسمت أيضاً لهذا الإدعاء الجديد الذي يمثل ادعاءات الشبان وهم يتوهمون الأمور وفق أمزجتهم الرخوة لا وفق الواجب في معرفة الأصول ، وقلت لصاحبي بعد أن انتحينا ناحية في النادي مزدانة بأصص من الزرع دائمة النظارة الريبية ، يحسن أن تجلس هنا فنقص على قصة شعرية يرجملها خيالك الخصب وينزعها من صميم الواقع كما قلت .

أرجو ألا تهزأ بي . أستمع إلى :

« وضعت حقائبي في المكان المد لها ، وجلست على المقعد الذي احتجزته في عربة القطار ، ثم التفت لأرى رفاق الطريق الذي سأقطعهم بمرحلة واحدة من مرسيليا إلى باريس ، فقلت سيدة تتألق نظارة وشباباً ، وضاحة الحيايادية الفتنة وسمعتها تقول للرجل الجالس إلى جانبي : ألم أقل لك إنه غير فرنسي ، إذ لو كان فرنسياً لكان حياناً بإشارة بسيطة ساعة دخوله ، ولا كان ألهاه المودعون ولا المشاغل الذهنية عن أداء التحية الواجبة » .

وسمعت يقول لها : لم لا تقيمين للتقاليد والمادات اعتباراً ؟ لا ذا تفرضين على غير الفرنسيين الأخذ بعاداتكم وتقاليدكم ، وقد تكون هذه التقاليد التي تريها حميدة عندهم مسهجة عند بعض

ما يؤذى إباء النفس ، بل كرفيق الطريق الذى يحرص على إبقاء
أطيب أثر فى نفوس رفاقه ؟

هاك بدى . أما أنا فمدم « فرانس » وصديقي هذا مستر
« أميركا » وأنت يا صديقنا على هذا القياس من تكون ؟
رطبت شفتي بقبلة من يدها البضة وقلت متابعا على النوال
نفسه : أنا يا سيدنى مستر « إيجبت » .

إيجبت ... إيجبت ! رددت السيدة كلمة إيجبت وهى تلفظها
ممطوطة ممدودة بتؤدة كأنها تعود بذكرياتها آلاف السنين إلى
الوراء تشرع بلحمة واحدة آثار الماضي السحيق الباقية على
الدهر وتقول : انت إذن مصرى ؟ !

نعم يا سيدنى أنا مصرى من سكان القاهرة ، وانت فرنسية
فقاطعتنى قائلة : « فرنسية-باريسية » وصديقنا أميركى من
واشنطن أو نيويورك وليس قطعاً من هوليود . وهما نحن الثلاثة
نمثل ثلاثاً من قارات عالمنا ، ونمثل أيضاً أعرق مدنية عرفها
التاريخ القديم وهى تتوثب الآن للعودة إلى الحياة ، وأعرق مدنية
حديثة ستغلب عليها مدنية أحدث منها ، ومدنية جديدة فى العالم
الجديد قد يكون لها طابع خاص سوف يتحول بسرعة إلى طابع
ييم العالم ، وأردفت كأنها تتدارك فوات فرصة : نعم نعم سيكون
الدولار طابع أميركا الخاص كما يحاول الروس أن يجعلوا الاقتصاد
أساساً لنظام العالم الاجتماعى الجديد . قالت السيدة كلمتها عن الدولار .
وضحكت ضحكة عالية لها رنة الأوتار المزنة والنغمات الرقيقة .

قلت : العالم يا سيدنى لا يقوى على السير فى نظام اقتصادى محض
بل يستحيل عليه المضي فى طريق السعادة البشرية بغير دوافع الروح
هذا صحيح يا مستر إيجبت ولكنى لاحظ أن مدم فرانس
تحدثانى فى كل ما أقول ، فإذا كان ذلك يذكرك يا سيدنى فلا أمانع
أنا الأميركيانى فى تقرير الدولار طابعاً لبلادى وهو بالفعل الإله الذهبى
الموحى إلى كل الناس كل الرغبات والشهوات .

المرأة يا مستر أميركا ، أرجوك ألا تنسى المرأة ، بل أحتم
عليك عدم نسيانها لأنها الروح الذى تكلم عنه مستر إيجبت
ولأنها وحدها الموحى لكل الناس كل الرغبات والشهوات
— على حد تعريفك أنت — بل هى وحدها موحية الحياة والحب
لو كل النساء كن مثلك يا سيدنى لما ترددت فى الاعتراف
بذلك ولكن ...

دع يا مستر أميركا قرض الديح ونظم الشناء والإطراء لأنها
من طبائعنا الأصيلة التى لم تقتبسوها عنا بعد ، ولأنها وإن كانت

الأقوام ، وربما كانت مستقبحة عند أقوام آخرين أمثال الإنجليز
مثلاً الذين يحبون من لا يعرفون مهما كانت الظروف والمناسبات .
فهمت من لهجة الرجل ومن قممات وجهه ولون بشرته أنه
أميركى يحسن التعبير عن خواطره باللغة الفرنسية وكان بلفظها صحيحة
ولكن يبطئ ممض أوجع نفس السيدة الفرنسية الجيئة أشه ،
وأدركت أن مدار الحديث يدور حولى لأنى أخذت مكانى فى
عربة القطار ولم أحى من فيها ساعة دخولى !

هل أدخل فى القضية طرفاً ثالثاً على حد تعبير المحامين ، وهى
قضية خاصة بى برغم قيامها بين السيدة الفرنسية والشاب
الأميركى ، أو أزم الصمت وأحترم سجية نفسى وعادات قوى
وأسكت عن الكلام مع من لا معرفة لى به . أليس فى ذلك تطفل
أو تخط للعرف ؟ أو ليس هو وسيلة سهلة مؤدية إلى التعرف
بهذه السيدة الجميلة المغرية ؟ أو ليس فى ذلك فائدة للوصول إلى
ناس يطيب لى أن أحدهم عن قوى وبلادى وقد لا يعرفون عنهم
شيئاً أو يعرفون ما تنقله لهم اللطافة المغرصة ، والفكر الاستعمارى
وجهالة بعض الكتاب الطائشين ؟

جالت هذه الخواطر فى ذهنى والسيدة والرجل ما زالا
يتحاوران ويتناقشان . هى تصر على أن عادات قومها مرتكزة
على قواعد آداب الاجتماع وهو يتكرر أن للآداب الاجتماعية قواعد
ثابتة ، هى تقول إن قواعد الفن والنق ، وهو يقرر أيضاً
أن مباهات الفن هى معارض النحت والتصوير ودور التمثيل
وبعض دواوين الشعراء وكتب الأدباء والروائيين ، وأن النوق
مسألة فردية وإحساس ذاتى . هى تقضب من تمهده لإهمال ذكر
المرأة فى أنها الفن كله باعتبار أنها الباعث الأول على استفزاز
ملكات الفن والإلهام الفنى ، وهو يتكرر عليها بعض دغواها
ويؤيد بعضها ويقول : إن المرأة موحية حافزة ، وليست هى
بشئ فى صميم الفن ! هى تصرخ قائلة : إنكم معاشر الأميركيان
لا تغدقون الحياة إلا عن طريق الدولار ! وإنكم ... وإنهم عبدة
الدولار فقط . أليس كذلك يا مسيو ؟ والتفتت إلى تدخلنى
فى هذا الجدال . كاد يرمج علىّ حين فاجأته بسؤالها وهو استجداد
بى أكثر منه سؤالاً ، ولكنى تمالكت نفسى وقلت :

إلخال أنى كنت السبب فى هذا الحوار الذى بلغ بكما إلى هذه
النتيجة ، فهل تسمح لى سيدنى أولاً أن أحببها وقد آليت على
نفسى بمجاعة الفرنسيين وتقليد ما دمت فى بلادهم ثم أدخل
فى الحوار ، لا كفضولى متطفل قد تعرضته صفاته إلى سماع

دوى رنين الجرس يدعو الراغبين فى الطعام من ركاب الدرجة الأولى إلى تناول العشاء ... وكان الكلام حتماً لمدام فرانس التى أسرت أحد النادل (جارسون) بتهينة مائدة لثلاثة أشخاص ... فكان طعام وكان شراب ، بل كان شراب وطعام وكلام وشعر وتوريات ورموز وتلميحات ومقارنة بين المرأة المصرية وأختها الفرنسية والأميركية ، وكادت تضطرم ثورة مدام فرانس لتوهما أن أختها المصرية أوفر براعة منها فى إرضاء الرجل ...

عدنا إلى مقاعدنا وقد أذبل الشراب أجفاننا ، وأخذ قوة النضال الكلامى فينا ، وأدركى بطبيعة الحال قوة النظر الطويل والاعجاب الذى لا حد له والافتتان بهذه المرأة الملوءة حيوية وجالا ونضارة وسجراً والمعدة أمامنا على مقعد عربية سكة الحديد محاول النوم على هدير القاطرة وصغيرها وقرقرة العربات .

لقد أحييت الليل ورفيقى الأميركى تتحدث همساً حتى لا تزعج السيدة الناعمة ، وكان طبيعياً أن يختلف فى رأى وأن تتجاوز وتتجادل ثم تعود إلى صفائنا الأول ، وكان بديهياً ، بحكم الرغبة الكامنة ألا يختلف أبداً وأن تنفق اتفاقاً تاماً على الأنا نعيد النظاء كما سقط عن جسم هذه المرأة الفاتنة المتناومة ، وكان عذاباً على سماعتنا قولها : يا لكما من شايين شقيين !

سكت محدثى مرة ثانية فلم أدعه يتمهل بل قلت له بنبهة جافة : ثم ماذا ؟ صدمه سؤالى وكاد يتخاذل ولكنه تجلد وقال : طلع الفجر ، ثم تفجرت أشعة الشمس ، وانجلى عروس برة فرنسابوشوبها الزيرجى النضر . وبلغنا باريس فافترقت القارات الثلاث ، وراح مستر أميركا ومستر إيجبت كل فى طريقه ، وراحت مدام فرانس تنثر القبلات وتنقبل القبل من مستقبلها على إفريز المحطة ربت كتف محدثى وقلت له ببشاشة أذهبت وقع الصدمة

الألمية التى صدمته بها عند سؤالى إياه تنمة القصة بقولى : « ثم ماذا » ليست قيمة القصة يا صاحبي فى المادة التى تتألف منها ، ولا فى كيفية ترتيب تلك المادة ، بل قيمتها فى الكيفية التى تؤدى بها وفى عرضها عرضاً خاصاً بمهارة فنية ، بالتشويق والترغيب ، فى صدق الرواية عن الحياة ، مضافاً إليها الخصائص الفنية التى ذكرتها فى حديثى مع رفاق المقهى ، أما قصتك المرتجلة هذه فإنها تخالل حكاية واقعية وقعت لى حين رحلت إلى جزيرة رودس التى انزعها الطليان من الدولة العثمانية مع بقية جزر الدوديكانيز .

قال : أترجل قصتك أربحاً ؟ فابتسمت لسؤال هذا الشاب وقلت

هيبب الزمطوى

يتبع

ترضى غرور المرأة وتدغدغ زهوها ولكنها لا تقوم مقام الحقيقة التى لا يحصى عن الاعتراف والجهر بها وهى « أن المرأة هى الإله الوحيد النوحى إلى كل الناس معنى الحياة والمحبة ، ولذة الوجود والفرح به على الأرض ، ولذة الألم والحزن أيضاً » .

قال مستر أميركا موجهاً إلى السؤال : هل تعترفون بألوهية المرأة فى مصر ، وبأنها مصدر إلهام يوحى إلى الناس معانى الحياة كما قالت مدام فرانس ؟

بلنت ريقى وتكلفت ابتسامة رضى وقلت : ليتك يا مستر أميركا تضع السؤال فى الصيغة التالية : هل بلنت المرأة الأميركية درجة من الرقى سمت بها إلى مقام جعل الرجل يتطلع إليها فيه كما تتطلع كلنا إلى المرأة الأوروبية باعتبار أنها اللهم معانى الحياة والدافع إلى الشعور بالفرح بها ؟

لقد نجحت فى تحويل الدفة ، كما يقال فى تعبير النوتية ، وفى رفع الأثقال عن كتف المرأة المصرية والرجل المصرى ، وفى إزاحة الألم عن نفسى من قول الحق ، وقد أفلحت فى ذلك ، إذ ما كدت أنتهى من تحريف السؤال وتوجيهه إلى مستر أميركا حتى انبرت مدام فرانس تقول : تخولنى معلوماتى حق القول بأن المرأة الأميركية أخذت تدرك قدر نفسها وستنجح فى صيرورة ذاتها مصدر حياة أفضل فى روح الرجل الأميركي من الدولار .

ما كادت تنتهى مدام فرانس من قولها حتى رايتنى مدفوعاً إلى الكلام فقلت معقياً :

سوف تصير المرأة المصرية ذاتها مصدراً للإلهام الرجل وإذكاء روحه متى خلعت من شوائب الطفلة وبعد أن ترغها الآلام على التفكير فى ماضيها ومستقبلها بالقياس إلى حاضرها المضطرم بيران الانتقال .

صحيح ما رمزت إليه بلباقة يا مستر إيجبت عن المرأة أنها فى طور الانتقال الذى يعقب الانقلاب الاجتماعى ، ويمكننى القول إن بواكير الانقلابات تكون من النساء وفى النساء كما تكون بواكر الثورات وطلاتها من شرارات يقدها طلاب الجامعات بائحاً ، غير مباشر من أرواح بقطة عاملة هادئة .

سكت محدثى الشاب وكاد يطول سكوته ولكنه رفع رأسه ونظر إلى نظرة استفهام واضحة ، فقلت له ببرود : ثم ماذا ؟

ماذا ؟ ! نعم نعم ، كدت أظن أنى أنهيت القصة ولكنى نسيت فصلها الثانى .